لمحات من حياة

الإمـــام الحـــسين

obeikandl.com

obeikandl.com

الإمام الحسين

فى ذكرى ميلاد النبى محمد ﷺ، يتداعى إلى الذهن كل ما هو عظيم وجليل ورائع ، وتتجلى المثل الإسلامية العليا، والقيم الرفيعة التى غزت القلوب والعقول ، ومدت نور الإسلام إلى أبعد مدى ، حتى إنه لم تمضِ على انتقال الرسول الكريم إلا فترة قصيرة حتى وجدنا الإسلام يوطد دعائمه من الصين شرقًا حتى الأندلس غربًا ، ويصل إلى مساحات شاسعة من الأرض ما كانت تخطر على البال.

وفى مناسبة ميلاد الرسول العظيم ﷺ، عدت بخيالى، بينما أنا فى رحاب الحسين حفيد الرسول الكريم ﷺ ، وسيد شباب أهل الجنة ، إلى فترة مهمة من فترات التاريخ الإسلامى ، وما لعبته السياسة عبر التاريخ فى مسار التاريخ نفسه.

فما هى قصة الإمام الحسين مع الأيام؟

وكيف جاء رأسه الشريف إلى مصر؟

إن فى سيرة الحسين عبق النبوة ، وشيئًا من رسول الله ،

وقبساً من نوره ﷺ.

وكان النبى ﷺ يحب الحسين حبا شديدًا ، حتى إنه سمع بكاءه ذات يوم ، فقال لأمه فاطمة الزهراء: « ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى؟!».

لقد وقف الرسول ﷺ يومًا خطيبًا فى المسجد ، وبينما هو يعظ الناس، جاء الحسن والحسين ، وعليهما قميصان أحمران وهما يعثران ويقومان ، فلم يملك الرسول نفسه ، ونزل إليهما وأخذهما ، وعاد إلى المنبر وهو يضمهما إليه ، ويضعهما فى حجره ويقول:

«صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾» [التغابن: ١٥].

وبعد حجة الوداع مر الرسول بابنته فاطمة الزهراء، وقال لها:

« السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. الصلاة رحمكم الله. وتلا قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وتمضى الأيام ، ويشعر الرسول العظيم ﷺ بقرب الرحيل

إلى أكرم جوار ، فيمضى إلى المقابر ويزورها ويقول:

«السلام عليكم يا أهل المقابر لِيَهْنَ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه. أقبلَتِ الفِتَنُ كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها. الآخرة شر من الأولى».

ومرض النبى ، وجاءت فاطمة تزور والدها، فقال لها: مرحبًا يا ابنتى.

وأقعدها عن يمينه، ثم سارَّها بشىء ، فبكت. ثم سارَّها ، فضحكت. فلما سألتها عائشة عما أبكاها وأضحكها، قالت:

« ما كنت لأفشى سر رسول الله ».

وأتت فاطمة بالحسن والحسين إلى رسول الله ﷺ وقالت له: يا رسول الله، هذان ابناك فورِّثْهما شيئًا.

فقال ﷺ:

« أما الحسن فله هيبتى وسؤددى. وأما الحسين فله جرأتى وجودى».

ثـــورة الحسين:

وبعد خدعة التحكيم تمكَّنَ معاوية بدهائه ولينه وسياسته أن يتولى الخلافة ، ويُحوِّلها إلى مُلْك ، ثم أخذ البيعة بعد ذلك باللين حينًا ، وبالقوة حينًا آخر ، وبالخداع مرة ثالثة لابنه يزيد من بعده.

وتولى يزيد الحكم بعد والده ، ورأى الحسين أن بنى أمية قد اعتدَوْا على مبدأ مهم من مبادئ الحكم فى الإسلام ، وهو الشورى ، وقرر أن يواجه سلطان بنى أمية، رغم أنه لم يكن يملك من القوة والسيادة والسلطان شيئًا؛ فالأمر بين أيديهم ، والخلافة معهم.

وكان معاوية يعلم أن الحسين سيكون ألد خصوم يزيد هو وعبدالله بن الزبير ، وعبدالله بن عمر ، وعبدالرحمن بن أبى بكر. وكان يتوقع من أهل العراق أن يستدعوا الحسين؛ ليثور ضد ابنه يزيد، فأوصى ابنه بأن يأخذهم بالشدة. ولكن إذا ظفر بالحسين فعليه أن يأخذه باللين لقرابته من رسول الله ﷺ، فقد أوصى ابنه فيما يختص بالحسين:

« وأما ابن على، فإنه رجل خفيف ، ولن يتركه أهل العراق حتى يُخرِجوه ، فإن أخرجوه وظفرْتَ به فاصفحْ عنه ، فإن له

رَحِمًا ماسة وحقا عظيمًا ، وقرابة من محمد ﷺ».

وهذه النصيحة لم يأخذ بها ابنه يزيد فيما بعد ، حين تأزمت الأمور ، وطلب أهل العراق من الحسين القدوم لمبايعته ، وأرسل لهم ابن عمه مسلم بن عقيل ، والتفوا حوله. ولكنهم سرعان ما انفضوا عن مسلم عندما قرر الأمويون مهاجمة ثورة أهل العراق ، وقتل مسلم بن عقيل ، وانفض الناس ، وعلم الحسين بكل هذه الأحداث ، ولكنه قرر السير نحو الكوفة ، ولم يسمع نصيحة أحد من الذين طلبوا منه العودة ، خرج ومعه بنوه وإخوته من آل البيت، وأصر على الذهاب إلى الكوفة ، وكان قد نصحه عبدالرحمن بن الحارث، فقال له:

« بلغنى أنك تريد العراق. وإنى مشفق عليك أن تأتى بلدًا فيه عماله وأمراؤه ومعهم بيوت المال. وإنما الناس عبيد الدرهم والدينار. فلا آمن عليك أن يقاتلك مَنْ وعدك بالنصر ، ومن أنت أحب إليه ممن يقاتلك معه».

ونصحه ابن عباس كثيرًا . وكان مما قال:

« أقم بهذا البلد، فإنك سيد الحجاز. فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا ، فاكتب إليهم فلينفوا عمالهم وعددهم ثم أقدم عليهم ، فإن أبيْتَ إلا أن تخرج فسِرْ إلى اليمن؛ فإن بها

حصوناً وشبابًا، وهى أرض طويلة عريضة، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عند الناس فى عزلة فتكتب إلى الناس وترسل وتبث دعاتك، فإنى أرجو أن يأتيك عند ذلك الذى تحب فى عافية».

ولم يسمع منه الحسين.

فقال له ابن عباس:

«فإن كنت سائرًا ، فلا تسرْ بنسائك وصبيانك؛ فإنى أخاف أن تُقتل كما قُتل عثمان ونساؤه وولده».

ولم يسمع منه الحسين.

يـــوم كربـــلاء:

ويمضى الحسين ثائرًا ضد بنى أمية ، وهو يعرف أنه بهذا العدد القليل من الرجال من آل البيت لا يمكنه إسقاط حكم بنى أمية ، وأنه سوف يلاقى الموت لا محالة. ولكنه كان يعرف أن دمه الشريف سيكون صيحة ضد الظلم ، وأن الناس قد يفيقون على ما أوصله حكام بنى أمية بتحويلهم الخلافة إلى ملك عضوض.

وفى الطريق قابله الشاعر الفرزدق، فسأله الحسين عن أحوال

الناس ، وقال له الفرذق حقيقة الواقع ، وكان مؤلمًا:

قال له « قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية ، والقضاء ينزل من السماء ، والله يفعل ما يشاء ».

ومع ذلك أصرَّ الحسين على المسير مهما تكن العواقب ، يدفعه إلى ذلك - بجانب عمق إيمانه - إصرار أبناء عقيل على الثأر لمقتل مسلم.

جيش هائل أرسله زياد بن ربيعة بقيادة عمر بن سعد؛ ليحاصر به سبط رسول الله ﷺ.

ومضى الحسين ، وإذا به يُواجَه بجيش يزيد ، ووجد الحسين أن المعركة غير متكافئة، فطلب من أصحابه أن ينصرف مَنْ يريد أن ينصرف. وانصرف كثيرون تحت جنح الظلام ، ولم يبقَ إلا آل البيت معه.

وسأل عمر بن سعد الحسين عما استقدمه ، فقال له الحسين:

«إن أهل الكوفة طلبونى ، ولكن إذا ما أكرهونى أنصرف عنهم».

وأرسل عمر بن سعد إلى ابن زياد برغبة الحسين هذه فى العودة. ولكن ابن زياد أراد الانتقام من الحسين ، وأن يتخلص

منه نهائيا. حتى إنه رفض أن يعرض هذا الأمر على الخليفة يزيد ابن معاوية؛ ليرى فى ذلك رأيه.

وردد قول الشاعر:

الآنَ إذْ عَرَضَتْ مخالِبُنا بِهِ يرجو النَّجاةَ ولاتَ حينَ مناصِ

وعرضوا على الحسين عروضًا مُذِلَّةً لم يقبلها، وفضَّل الموت على الحياة. وحاصروا الحسين فى كربلاء ، ومنعوا عنه وعن أهله الماء.

وكان عمر بن سعد - وهو ابن القائد العظيم سعد أبن أبى وقاص - يخشى أن يكون دم الحسين على يديه ، وهو الذى قال فيه النبى العظيم:

«أنا من الحسين ، والحسين منى».

«الحسين سيد شباب أهل الجنة».

لقد طلب الحسين مهلة ، حتى يطلب من أعوانه التسلل تحت جنح الظلام؛ لأن الأمويين لا يريدون سواه. فليُقتَلْ هو ، وليسِلْ دمه الطاهر هو وحده. ولا داعى لسفك الدماء فى معركة غير متكافئة. لقد قال لأصحابه:

« إنكم لتعلمون أن القوم لا يريدون غيرى ، وأن يومى

معهم غدًا ، وإنى قد أذنت لكم جميعًا، فانطلقوا فى غير حرج، ليس عليكم من ذمام. هذا هو الليل قد غشيكم ، فانطلقوا فى سواده قبل أن يطلع النهار وانجوا بأنفسكم».

ولكن كلمات الحسين لم تزد آل البيت إلا تمسكًا بالقتال والاستشهاد معه ، فيصيح أخوه لأبيه العباس بن على :

«معاذ الله والشهر الحرام». وماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟ نقول: تركنا سيدنا وابن سيدنا عرضًا للنبال والرماح وجزرًا[1] للسباع ، وفررنا رغبة فى الحياة ؟! معاذ الله . . معاذ الله.

والأعجب أن ابنه الصغير «على بن الحسين» يسأل والده العظيم:

«بل نحيا بحياتك ونموت معك. ألسنا على الحق يا أبتاه ؟»

ويقول الحسين:

«بلى والذى أنفسنا فى يده».

فيقول الغلام:

«إذن والله لا نبالى».

---

(١) جَزَرُ السباع : بفتحتين اللحم الذى تأكله والمعنى المراد فى النص : أنهم تركوهم للسباع تأكلهم بعد أن قتلوا.

يـــوم حـــــزين:

وفى الصباح التالى . . هذا الصباح الحزين (اليوم العاشر من المحرم سنة٦١هـ) كان ٧٢ شخصًا بقيادة الحسين يواجهون جيشًا مكونًا من آربعة آلاف مقاتل. ويصر جيش ابن زياد على قطع رأس الحسين. ويتساقط آل البيت الواحد تلو الآخر.

ويحارب الحسين بشجاعة لا يعرف التاريخ لها مثيلاً ، ولكن الحسين العظيم بكى فى لحظة ، ولم يكن بكاؤه خوفًا ولا جزعًا، فقلبه لا يعرف الخوف ولا الجزع .

لقد بكى عندما قُتِل القاسم بن الحسن ، وهو صبى صغير. ولقد نادى عمه الحسين أن ينقذه من الموت ، وأسرع الحسين، وضرب عنق قاتله ، وتوجَّه إلى ابن أخيه قائلاً وقد ضمه إليه:

«عزيز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك فلا ينفعك فى يوم كثر واتره وقل ناصره».

ومع هول المعركة ، كان الكثيرون يخشون أن يكون قتل سبط رسول الله على أيديهم ، وكانوا يتحاشون لقاءه ، إلى أن أنهك الحسين القتال طوال هذا اليوم القاتم ، وسقط إعياء ، فهو يقاتل وحده جيشًا مكتمل العدة والعتاد ، ويقترب منه رجل انتزع من قلبه حب آل البيت وهو «شمر بن ذى الجوشن»، فيتقدم ويجتز رأسه الشريف.

والعجيب أنهم حملوا رأس الحسين إلى الكوفة ، فأخذ ابن زياد يعبث برأس الحسين بقضيب فى يده. واغتاظ أحد الحاضرين وقال له:

«ارفع قضيبك، فطالما رأيت رسول الله ﷺ يضع فمه على فمه».

فرفع ابن زياد القضيب.

وتغرب شمس هذا اليوم الحزين فى كربلاء على مشهد مثير وحزين ، ففى العراء أشلاء آل بيت الرسول. ومرت السيدة زينب - أخت الحسين - ورأت أشلاء أخيها وآل البيت، فقالت فى أسى عميق وهى توجه نداءها إلى جدها ﷺ:

«يا محمداه .. صلت عليك الملائكة .. وهذا الحسين بالعراء.. مرمل بالدماء .. مقطع الأعضاء..

يا محمداه .. وبناتك سبايا .. وذريتك تسفى[1] عليها الصبا».

فى بيـــت يزيـــد:

ويؤخذ آل البيت سبايا إلى بيت يزيد. وينظر يزيد إلى رأس الحسين ويقول لمن حوله:

أتدرون من أين أوتى هذا؟

قال : أبى على خير من أبيه ، وأمى فاطمة خير من أمه ، وجدى رسول الله خير من جده ، وأنا خير منه ، وأحق بهذا الأمر منه.

فأما قوله : أبوه خير من أبى فقد حاج أبى أباه ، وعلم الناس أيهما حكم له .

وأما قوله : أمى خير من أمه ، فلعمرى لفاطمة ابنة رسول اللهﷺ خير من أمى.

وأما قوله: جدى خير من جده، فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا ندا ، ولكنه إنما أوتى من قبل فقهه ولم يقرأ:

﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾** ﴾ [آل عمران: ٢٦].

---

(١) المعنى المراد أن الرياح تهب عليهم وتغطيهم بالتراب بعد أن قتلوا.

ويقول المؤرخون إن يزيد دعا آل البيت للحضور ، وإنه قال لعلى بن الحسين (صبى صغير):

« يا على .. أبوك الذى قطع رحمى ، وجهل حقى ، ونازعنى سلطانى ، فصنع الله به ما قد رأيت».

ويرد عليه على ببلاغة لا تتناسب مع سنه الصغيرة:

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ويتوعد يزيد آل البيت ، فترد عليه زينب رضى الله عنها:

« أنت أمير مُسلَّط تشتم ظالمًا وتقهر بسلطانك ».

واستحيا يزيد..

وقال بعض الرواة إن يزيد ندم على قتل الحسين ، وإن عينيه دمعتا وإنه قال لمن أحضر له رأس الحسين :

« كنت أرضى من طاعتك بدون قتل الحسين. لعن الله ابن سمية، أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه».

وقد قابل آل بيت يزيد السيدة زينب وآل بيت الرسول بحفاوة

بالغة بعد الحوار مع يزيد ، وإن يزيد نفسه قد جهزهم للرحيل إلى المدينة ، وطلب من على بن الحسين أن يرسل إليه وأن يكاتبه ما يريد.

ويقول الرواة إنه عندما قُتل الحسين لم يكن أحد فى الحجاز يعلم بقتله ، وبينما كانت أم المؤمنين أم سلمة فى فراشها قامت من النوم فزعة وهى تقول:

واحسيناه !! واحسيناه!!

وتجمع حولها الناس عندما سمعوا صراخها وسألوها:

ما الخبر يا أم المؤمنين ؟

- قتل ابنى الحسين.

- وكيف عرفت ذلك وأنت فى المدينة وهو فى الكوفة؟!

رأيت رسول الله وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت: يارسول الله.. جعلت فداك .. ما هذا التراب الذى أراه على رأسك ولحيتك؟!

قال رسول لله ﷺ: يا أم سلمة الآن رجعت من دفن ولدى الحسين.

فبكى الناس.

وتمضى الأيام ، وينتقم الله من كل الذين سفكوا دم سبط الرسول ﷺ، وتدور عجلة الزمن ، ويحكم مصر «طلائع بن زريق» وكان رأس الحسين بعسقلان ، وكان الغزو الصليبى يهددها، وخشى طلائع بن زريق أن ينتهك الصليبيون مزار الإمام الحسين، فقرر أن يدفن الرأس الشريف فى القاهرة ، ورحب بهذا الاقتراح الخليفة العباس الفائز بالله، وجاء الرأس الشريف فى تابوت من الفضة.

ودفن فى قصر «الزمرد» ، ثم أقام له الصالح ضريحًا يليق بصاحبه، سبط محمد ﷺ ، وتم ذلك فى سنة٥٥٥هـ ، وحضر افتتاح مسجد الحسين الصالح طلائع بنفسه ، ووسط أهل مصر وحب أهل مصر للرسول وآل بيت الرسول ، ودفن رأس سيد شباب أهل الجنة .

لقد آثر الإمام الحسين أن يواجه الطغيان وأن يقول كلمة الحق فى وجه السلطان الجائر مهما كانت العواقب ، وسفك دمه الطاهر ليكون منارًا لكل طلاب الحق ، ألا يخشوا فى سبيله شيئًا مهما كانت أشواك الطريق ، فما أقصر الحياة! وما أتفه ما فيها من سلطان زائل وأمجاد لا تدوم! فلا دوام إلا لمن يعيش بالله ولله. وللآخرة خير وأبقى.

* * *